ماهو المصرف الاســـلامى ؟

● **تعـــريف :**

المصرف الاسلامى ليس وسيطا ماليا كالمصرف التجارى فى اطـــار علاقة الدائن والمدين والاقتراض والاقراض بالفائدة ولكنه أنشطة تـدور على قاعدة الغنم بالغرم والكسب والخسارة والأخذ بالعطاء مع اقتسام الربح الذى يجود به الله بين الأطراف بنسب متفق عليها ٠

وذلك أمر غير مفهوم فى المصارف التقليدية التى كانت مهمتها « منذ نشأتها وحتى اليوم ـ تنحصر فى تنظيم الائتمان ابتغاء تيسير التبـادل وتيسير الانتاج وتعزيز طاقة رأس المال ٠٠ لكن المصارف الاسلامية تضيف الكثير على هذه المهام التقليدية لتجعل من المصرف أداة تحقيق وتعميق للأداءات المرتبطة بالقيم الروحية ، ومركزا للاشعاع ومدرسة للتربية وسبيلا عمليا الى حياة كريمة لأفراد الأمة الاسلامية وسندا لاقتصاديـات الدول الاسلامية » (١) ٠

١ ـ وذلك لأنه جزء من نظـام الاقتصـاد الاسلامى أى جزء من تنظيم عام عقائدى ٠

٢ ـ وهو لذلك ملتزم بتعاليم الاسلام وتجسيد مبادئه ٠

٣ ـ متلزم بشمولية السلوك الاسلامى ٠

٤ ـ ملتزم بموقف الاسلام من الربا ٠

« لأن وحدة الأمة الاسلامية هى وحدة عقيدة وشريعة وثقافة وفكر ومصالح مشتركة ويمكن أن يقام صرح التعاون الاقتصادى والاجتماعى لهذه الأمة على تلك الوحدة بحيث يصبح المجتمع الاسلامى قوة اقتصـادية كبرى تعطيه وزنا عالميا فى المجال الدولى فى عصرنا الحاضر » (٢) ٠

وعلى ذلك « فالمصرف الاسلامى حين يمارس قبول المدخرات ، لا يسعى

---

(١) الموسوعة العلمية والعملية للبنوك الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٥

(٢) المصارف وبيوت التمويل الاسلامية للدكتور غريب الجمال من ص ١٢ من كتاب « مامعنى البنك الاسلامى » لسيد الهوارى ٠

أساسا الى تجميعها لتزداد قدرته على الاقراض الربوى ، وانما يقوم بذلك تربية للأفراد وتعويدا لهم على التخطيط والتقدير لأنفسهم وأسرهم ، واسهاما فى تنشئة جيل اسلامى السلوك فى الانفاق بما يعود عليه بالنفع بطريق مباشر وعلى المجتمع بطريق غير مباشر .

والمصرف الاسلامى حين يمارس منح القروض الانتاجية انما يسعى الى تاكيد التوجيهات الروحية فى اقرار دور العمل وما يمكن أن يترتب على ذلك ، وليوسع قاعدة العاملين الذين يستطيعون أن يقدموا الى مجتمعهم اضافات كم هو فى حاجة اليها ... وليضع رأس المال فى موضعه الصحيح حيث ينبغى أن يكون : خادما ووسيلة .. يستطيع أن يجدها كل قادر على استثمارها والافادة منها ... لا كل متخم يستطيع ان يشتريها ليزداد ثراء وشرها .

والمصرف حين يمارس الاستثمار برأسماله بشكل مباشر أو بالأموال التى لديه مشاركا للآخرين .. لا يقوم بهذا العمل سعيا وراء الكسب فحسب . ولكنه يقوم بذلك وفقا للقواعد الشرعية ليجتذب رأس المال الذى يمكن أن يكون عاطلا لتحرج أصحابه عن التعامل به مع بيوت يجدون فى صدورهم حرجا من التعامل معها ، وليعيد الى نفوس المتعاملين معه على قاعدة الغرم والغنم فضائل الايجابية والاقدام التى استلها من نفوسهم الاطمئنان الى الفائدة الثابتة التى يجنونها فى كسل وتراخ ، وليستحثهم بطريق غير مباشر على السير نحو التوجيهات الروحية الكريمة التى وردت فى شأن المال والتكاليف المفروضة على أصحابه ، وليجد من عائد الاستثمار ما يستطيع أن يستعين به على أداء حق التكافل المفروض على المجتمع قبل أفراده » (٣) .

***

● **الغنم بالغرم (٤) :**

« الغنم بالغرم » حديث نبوى صحيح يضع قاعدة مستقرة وسنة

---

(٣) الموسوعة العلمية والعملية للبنوك الاسلامية جـ ١ ص ٥

(٤) الجامع الصغير وجامع الجوامع وكتاب الأقضية والشهادات .

ماضية فى حياة الناس السوية ... لكن قبل أن نمضى فى شرح مقاصد الحديث لابد أن نشير الى معنى الكلمتين اللغوى :

غنم الشىء غنما : أى فاز به (لسان العرب) .

واذا قيل : فلان يتغنم الأمر ، أى يحرص عليه كما يحرص على الغنيمة .

فالغنم هو الفوز بالمكسب أو الغنيمة .

ويقال : غرم غرما وغرامة (لسان العرب) .

والغرامة : ما يلزم أداؤه .

ورجل غارم : عليه دين (الغارمون) .

والغرم : أداء شىء يلزم .

اذن فعبارة « الغنم بالغرم » كاصطلاح شرعى يكون معناها أن الفوز (الغنم) يكون مقابل واجبات وأعباء يتحملها الفرد الذى يأخذ الميزات والحقوق .

أى ان الاسلام يحرص على عدالة التوزيع ويأبى أن يتظالم الناس . فيرفض الاسلام أن يستمرىء بعضهم البطالة والكسل فيعيش عالة على جهود الآخرين ... ولذلك كان من أهم قواعد الاقتصاد فى الاسلام « ألا كسب بلا جهد ولا مال بلا عمل » .

وقاعدة الغنم بالغرم يجب أن تطبق على كل أنشطة الانسان حتى تستقيم له الحياة الطيبة .

ففى علاقة الانسان بربه : على الانسان أن يتخلى عن الأهواء والرغبات والتطلعات التى نهى عنها الله ليستفيد بالمزايا التى يمنحها له الله وبذلك يكون قد وازن بتحمل المغارم (النواهى) فى سبيل حصوله على غنم عظيم وعد به المولى سبحانه وتعالى .. وهو ما يبرزه

حديث رسول الله ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (٥) .

وقد من الله تعالى على الانسان فى فطرته بمزايا وامكانات تؤهله مشيئة واختيارا وسلوكا لكى يكون أهلا لهذه الموازنة بين الغنم والغرم : **« يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم »** (٦) .

وفى علاقة الانسان مع نفسه نجد الاسلام يطالب المرء بالحفاظ على استقلال شخصيته فى تكوين رأيه وعقيدته حتى يتجنب الخسارة الفادحة من جراء تبعيته للبيئة المنحرفة مهما كان تيارها جارفا ومهما كانت غنائمها المتوهمة مغرية ، فالكسب الحقيقى هو صدق النفس مع النفس .

يقول تعالى **« فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ »** (٧) .

ولحرص الاسلام على هذه الحقيقة يحذر أتباعه حتى من الانقياد للوالدين فى عقيدته رغم أنه يقرن حق الوالدين بحق الله فيقول تعالى : **« وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »** (٨) .

ومع استقلال الشخصية المطلوب يجب أن يراعى الانسان التوازن فى تحقيق مطالبه المادية والروحية فلا يطغى جانب على الآخر والرسول ﷺ يقول « خذوا من العمل ما تطيقون ، فان الله لا يمل حتى تملوا » (٩)

كما قال عليه الصلاة والسلام لمن أراد أن يصوم ولا يفطر ومن أراد أن يصلى الليل أبدا ومن أراد ألا يتزوج ليتفرغ للعبادة « أما والله انى

---

(٥) رواه أحمد ومسلم والترمذى
(٦) الأنفال : ٢٩
(٧) الأنعام : ١٠٤
(٨) لقمان : ١٥
(٩) رواه البخارى وغيره

لأخشاكم لله لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتـزوج النسـاء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١٠) .

أما عن علاقة الفرد بالآخرين فيحددها قول الرسول ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١١) .

هذا الحديث الشريف يطالبنا بأن تكون عواطفنا الخيرة مقترنة دائما بالعمل حتى يكتمل الايمان . **« أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة »** . الخ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ..

ويبلغ هذا الحديث فى حث المسلم على ترجمة عواطفه الى عمل خير وأن تستقيم علاقته مع الناس على نفس المستوى الذى يحبه لنفسه والا فقد نقص ايمانه .

فاغتنام الايمان يقابله حسن التعامل والسعى للخير للنفس وللناس والرسول ﷺ يقول أيضا ليزيد الأمر وضوحا : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » (١٢) .

وان أسمى درجة لتطبيق هذه القاعدة هى الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن المجتمع ـ بكل مقوماته اقتصادية وسياسية واجتماعية ـ وعن العقيدة ابتغاء وجه الله وهكذا يصور القرآن باعجازه الجهاد بقوله تعالى : **« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »** (١٣) .. صفقة فيها غرم يقابله الغنم الأكبر .. الجنة .

ويحثنا الرسول ﷺ على الجهاد بقوله : « جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى » (١٤) .

بقى ان اقول ان من أوضح المثل العملية الملموسة لقاعـدة الغنم بالغرم هو نظام المواريث فى الاسلام .. فالكثير من الناس يتساءلون لماذا اعطى الذكر مثل حظ الأنثيين ؟ .. لأن نفقة البنت تقع على أبيها ثـم اخيها ثم زوجها حتى ولو كانت غنية ..

---

(١٠) رواه البخارى وغيره
(١١) متفق عليه
(١٢) رواه مسلم وابن حبان
(١٣) التوبة : ١١١
(١٤) رواه البخارى

أما الرجل فهو المسئول عن نفقة أهله ونفقة أمه وأبيه فى حالة فقرهما وقد يطالبه أحد أقربائه المساكين بنفقة وتحكم له المحكمة ان امتنع عن دفعها رضاء .

ويظهر الخروج على هذه القاعدة ـ الغنم بالغرم ـ فى نظام الفوائد (الربا) والذى يحاولون دائما ايهام الناس بأنه نظام استثمار سليم لكن الله تعالى يقول « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » (١٥) .. لأن الربا كسب مضمون بدون عمل ودون تحمل لمخاطر الاستثمار فى مقابل هذا الكسب .. بينما التجارة حركة وعمل وفرص تشغيل ورزق للناس . وأنت فى تعاملك مع المصرف الاسلامى تطالب بحقك فى الربح فعليك أن تتحمل نصيبك من الخسارة اذا وقعت وفق قاعدة الغنم بالغرم .

ويضع الاسلام قاعدة شرعية أخرى لمعاملات الناس وعلاقاتهم مع غيرهم ومع أنفسهم هى ذلك الحديث النبوى الشريف : « لا ضرر ولا ضرار » (١٦) ... أى لا يحق للمرء أن يضر نفسه أو يلحق الضرر بغيره ..

فالتدخين مثلا فيه اضرار بالنفس واضرار بالغير (١٧) .. فيه ضرر بليغ بصحة المدخن وفيه اتلاف مال أسرته أحق به وان لم تكن أسرته فقراء فالمجتمع أولى به .

واذا حاولنا القياس على الربا فماذا نجد .. ؟

المرابى يعيش كالطفيليات على جهد وكد الآخرين وهو مخلد الى الكسل لا يحاول أن يسهم بجهده فى خدمة نفسه أو أمته .. يقتل فى نفسه كل مواهبه الا غريزة الجشع والأنانية .

وهو فى نفس الوقت يضار الناس بهذه الفوائد التى يتحملها كل أفراد المجتمع لأنها تزاد على تكلفة كل سلعة كما أنها تقف حجر عثرة

---

(١٥) البقرة : ٢٧٥ (١٦) متفق عليه

(١٧) وقد أفتت هيئة كبار علماء السعودية بحرمة التدخين اعتمادا على هذا الحديث وحديث « كل مفتر حرام » .

فى طريق انطلاق عجلة التنمية بما تمثله من عبء مالى كلنا نلمسه ونشاهده ونقاسى منه فى العالم الثالث الذى يئن تحت وطأة ربا القروض الخارجية بالذات وما يطلق عليه « أعباء خدمة الدين » .

وبناء على ذلك فالمصرف الاسلامى الملتزم بهذه القواعد الشرعية لا يمكن أن يكون وسيطا ماليا كالمصرف التجارى الذى يقوم بهذا الدور (الوسيط) كما أراده له القانون .

فالمصرف التجارى قناة تتجمع فيها الودائع (الموارد) ليقوم هو باقراضها لمن يحتاجها لتمويل تجارة أو صناعة أو زراعة أو رحلة علاج أو ترفيه .. انه وسيط بين المودع أو وكيل عن مجموعة المودعين لاقراض أموالهم لمن يطلبها او يحتاجها ..

لكن المصرف الاسلامى رسالة أولا وقبل كل شىء هدفها الله .. ولأن فى كل تشريعات الاسلام الغاية هى الله ثم نفع الانسان تبعا لذلك .. ومصدر التشريع فى الاسلام كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لذلك كان حتما علينا أن نتدبر كتاب الله وسنة رسول الله كى نكون فى طاعة الله ورسوله الذى يقول « ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله أن يثيبه ويبارك له : من سعى فى فكاك رقبته ، ومن تزوج ، ومن أحيا أرضا مواتا » ..

وهكذا يربط الله بين كل عمل فى الدنيا يعمله الرجل وبين التوجه به الى الله تعالى ليكون عبادة .. وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الرسول ﷺ بالحرية .. تحرير العبيد لأن الاسلام يريد مجتمع أحرار لا يذل لأصنام المال أو الشهوات أو المخلوقات .. لأن الانسان الحر أقدر على الانتاج من العبد وله مما يحفزه على الانتاج ما لا يتوافر للعبيد أو تروس الآلات .

ثم يدعو المسلمين للزواج ليتكون المجتمع المسلم الصحيح النظيف الذى لا تدنسه الانحرافات والأهواء والمفاسد ، وهذا هو هدف أى نظام اقتصادى .

وأخيرا ، يطلب منا جميعا أن ننتج فلا نترك أرضا ميتة بغير احياء ولا رزقا مما بثه الله فى الأرض بدون استفادة منه .. وحتى أنه ﷺ ليعتب على أصحابه وينبههم الى أن كل عمل شريف الغاية هو فى سبيل الله وذلك عندما رأوا شابا جلدا يسير مسرعا فقالوا « هلا كان ذلك فى سبيل الله ؟ ، فيلفتهم النبى ﷺ الى أنه اذا كان يسعى على أبوين شيخين فسعيه فى سبيل الله ، واذا كان يسعى على عيال يعولهم فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى ليعف نفسه فهو فى سبيل الله .

ولعل فى هذا بيانا من الرسول لقوله تعالى « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (١٨) .

واذا كانت الدار الآخرة هى الهدف الأسمى لكل عمل ابن آدم فذلك ما يؤكده قول الرسول ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه الا لله » .

ولعل هذا الهدف هو الذى حدا برواد المصارف الاسلامية الى اخراج فكرتها الى حيز التحقيق العملى بعد أن استشرت شرور الربا ووضحت مساوئه وأصبح العالم كله غنيه وفقيره يئن تحت وطأته التى تتمثل أساسا فى أعمال المصارف التجارية التقليدية .

فاعمال هذه المصارف كما نعلم يقوم معظمها على أساس سعر الفائدة فهى تعطى المودع فائدة على ودائعه وتأخذ من المقترض فائدة أعلى فاذا كانت فائدة الودائع ١٥٪ ، تراوحت فائدة القروض بين عشرين وثلاثين بالمائة والفرق بين السعرين هو أهم أبواب ايرادات المصرف .

وهذا خروج بالنقود عن وظيفتها الأصلية التى يحددها الامام أبو حامد الغزالى فى قوله :

« ان كل انسان محتاج الى أعيان كثيرة وقد يعجز عما يحتاج اليه ويطلب ما يستغنى عنه فلا بد للناس من معاوضة ، ولا بد فى مقدار العوض من تقدير ، وهذه الأعيان غالبا ما تكون متباعدة متنافرة فافتقرت

---

(١٨) القصص : ٧٧

الى متوسط يحكم فيها بحكم العدل ، فخلق الله الدنانير والدراهم حاكمين متوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما . وحكمة أخرى هى التوسل بهما الى سائر الأشياء لأنهما عزيزان فى أنفسهما ولا غـــرض فى أعيانهما ونسبتهما الى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شىء ، كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون وكذلك النقـد لا غـــرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض ، فكل من عمل فيهما عملا يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى . فمن كنزهما فقد ظلمهمـــا وأبطل الحكمة فيهما ، وكل من اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا ، على خلاف وضع الحكمة ، فمن معه نقد لو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله لبقى النقد متقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، ولا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا للاتجـــار وهو ظلم » (١٩) .

ويقول ابن تيمية : « ان الأثمان تجعل معيار أموال الناس ولهـذا ينبغى للسلطان أن يضرب لهم فلوسا تكون بقيمة العدل فى معـــاملاتهم من غير ظلم لهم ولا يتجر ذو سلطان فى الفلوس أصلا » (٢٠) .

ومعنى ذلك بوضوح أن النقود غير مهيأة بطبيعتها لأن تنتج بذاتها ربحا وأنه لا يجوز اتخاذها سلعة ذات ثمن . وأن الاتجـــار فيهـا على هذا النحو يؤدى الى تكديس الثروات واكتناز الأموال وفى ذلك أبـلغ الاشارة الى طائفة من المضار الاقتصادية لفائدة رأس المال وبيان لطبيعة النقود ومهمتها فى بناء الاقتصاد .

وكلنا يعلم أن الأديان السماوية جميعها قد حرمت الربا كما أن المذاهب الاشتراكية تنادى بتحريم الفائدة باعتبارها « اغتصاب لعـرق الفقير » .. ولقد تنادى الاشتراكيون لمنع تلك الأربـــاح الضـخمة التى يحصل عليها رجال الأعمال القلائل فى العالم دون عمل يؤدونه واقصاء

---

(١٩) احياء علوم الدين للغزالى ، ج ٤ ، ص ٩١ ، ٩٢

(٢٠) المدخل لفقه البنوك الاسلامية ، لعبد الحميد البعلى ، ص ٧٢

المرابين من أصحاب المصارف من مجال النظام الاقتصادى حتى يتمتع العامل بثمرة كده وعمله .

وقد زعم الاشتراكيون أنهم سيوجهون فائض القيمة (٢١) الى الاستثمار فى المشروعات القائمة أو الجديدة بدلا من تكوين احتياطيات نقدية كما يفعل العالم الرأسمالى .

وقد أوجب الاسلام فعلا ـ قبل الاشتراكية بأكثر من ألف عام ـ أن يكون المال فى خدمة المجتمع ـ او بعبارة أخرى ـ أن تكون الثروة القومية فى خدمة أفراد الأمة حتى ما كان منها زائدا عن حاجاتهم فيقول الحق تبارك وتعالى فى معرض الحديث عن الانفاق على اليتامى والسفهاء « وارزقوهم فيها واكسوهم » (٢٢) .

وفى تفسير هذه الآية يقول صاحب الكشاف « أى اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من أصل المال فلا يأكلها الانفاق » .. وهو نفس ما طالب به الرسول ﷺ ولى اليتيم حتى لا تأكل الزكاة ماله .

وهذه الزكاة التى فرضها الاسلام وحدد مصارفها وأهمها الفقراء ، كانت الوسيلة لتوسيع قاعدة الاستهلاك الذى يدفع بدوره عجلة الانتاج ويتيح فرص العمل لمزيد من الناس .

ووجود المصارف من أهم العوامل لتجميع المدخرات المطلوب توجيهها للاستثمار فى خطط التنمية عن طريق المساهمة فى أو انشاء المشاريع الانتاجية ـ سواء الزراعية أو الصناعية أو التجارية ـ التى تفتح مجال العمل للمواطنين وتزيد من الثروة القومية وبالتالى ترتفع بالمجتمع نحو مزيد من العيش الكريم .

ولما كان الاسلام يحرم الربا بصريح النص « يأيها الذين آمنوا

---

(٢١) اصطلاح بمعنى الفرق بين ما يدفع للعامل من أجر والقيمة الحقيقية للعمل وهو ما يقابل الاصطلاح الرأسمالى « القيمة المضافة » .

(٢٢) النساء : ٥

اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٢٣) •

وهو ما أجمع عليه علماء العالم الاسلامى الذين التقوا عام ١٩٦٥ فى مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة وقرروا أن « كل الربا قليله وكثيره حرام لا فرق فى ذلك بين ربا القرض الانتاجى أو القرض الاستهلاكى ولا بين الوديعة لأجل أو فائدة صندوق التوفير •• » فكان لا بد من قيام المصرف الاسلامى الذى لا يتعامل بالربا لا أخذا ولا عطاء •••

والواقع أن رسالة المصرف الاسلامى لا تقتصر على الغاء سعر الفائدة من معاملاته ـ وهو أمر خطير وهام جدا للاقتصاد الاسلامى ـ بل هى تمتد الى آفاق بعيدة فى تصحيح مسار الاقتصاد كله لما فيه خير البشرية •

* * *

● **غاية المصرف الاسلامى :**

قدمنا أن الغاية الكبرى والهدف الأسمى لكل عمل ابن آدم هما ابتغاء الدار الآخرة •• لكن كيف نسعى الى هذه الغاية من خلال المصرف الاسلامى •• ؟

يقول الاقتصاديون الغربيون (Banks create money) **أى أن** المصارف تخلق النقود ، وهذه حقيقة فعلية فى المصارف التقليدية التى تخلق نقودا حسابية ـ اذا صح التعبير ـ بأن تفتح للعميل اعتمادات يسحب منها بدون أن يودع لدى المصرف نقودا اعتمادا على اسم العميل وسمعته أو مقابل تقديم عقار كرهن أو ضمان لهذه الاعتمادات •

وبذلك تسهم هذه المصارف فى ايجاد التضخم وزيادته لأننا نراها حين تحاول الحكومة امتصاص الأموال الزائدة فى السوق برفع سعر

---

(٢٣) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩

الفائدة على الودائع ـ وهو بعض العلاج النمطى للتضخم ـ ويتجه الناس الى المصارف بودائعهم للاستفادة من سعر الفائدة المرتفع .. تقوم هذه المصارف باعادة الأموال للسوق بل وزيادتها بما تمنحه من اعتمادات وما تقدمه من ائتمان وكأنها بذلك تحارب سياسة الدولة التى تحاول الحد من التضخم .

ولن نحاول فى هذا الحديث عن المصرف الاسلامى الخوض تفصيلا فى مشكلة التضخم لكن سنتناول جانبا من جوانبها ولعله أبرزها جميعا لظهوره بشكل ملموس للعامة والخاصة ألا وهو زيادة كمية النقود فى الأسواق ، والمعروف ألا علاج لهذه الظاهرة الخطيرة الا بالربط بين كمية النقود والانتاج وما لدينا من احتياطيات كخطوات أولى على طريق تثبيت قيمة النقود كعلاج أساسى لمشكلة التضخم .

وهذا أمر يستلزم أيضا ربط الأجر بكمية العمل فلا ترفع الأجور عشوائيا بلا مقابل من انتاج فنقع فى الشرك الجهنمى الذى نصبته الصهيونية العالمية للناس والذى جاء ذكره ضمن بروتوكولات حكماء صهيون حيث نصت على :

١ ـ استنزاف جميع الثروات بنظام المضاربة (٢٤) والأرباح الفاحشة .. الأمر الذى يحدث فى البورصات لا سيما فى بورصات العقود الآجلة .

٢ ـ تشجيع حب الترف والكماليات .. وهى ما تحاول أجهزة الاعلام كالسينما والتليفزيون بصفة خاصة بثه فى المجتمع .. كمناديل الورق ومختلف الروائح التى تطلق فى الجو بدلا من فتح النوافذ .

٣ ـ زيادة الأجور ورفع الأسعار .. ولا أظن أحدا من الناس لم تصبه هذه النقمة .

---

(٢٤) المضاربة المقصودة هنا هى افتعال أسباب لرفع الأسعار أو خفضها بدون مبرر لذلك ، وهى غير المضاربة الشرعية التى هى شركة بين أطراف أحدهم بالعمل والآخرين برأس المال .

٤ ـ التحريض على ادمان الخمر والفساد الخلقى ... أمور خلقوا منها تجارة تشرف عليها شركات منظمة .

أما الاتجاه الى رفع سعر الفائدة الذى جربناه مرارا حتى وصلت أسعار الفائدة فى يناير ١٩٨١ الى أكثر من ثلاثين بالمائة للدولار ـ وهو ما يعاود المطالبة به صندوق النقد الدولى فى عام ١٩٨٧ ـ .. ويترتب على ذلك استمرار الارتفاع فى سعر فوائد الاقراض .. ولكن الى أى حد يمكن أن يستمر ذلك .. ؟

ان رفع سعر الفائدة من أخطر عوامل اعاقة التنمية لأن التاجر أو رجل الأعمال عندما يفكر فى توسيع مصنعه أو انشاء مصنع جديد يرى أن سعر الفائدة سيلتهم ثمرة عمله فيحجم عن هذه المخاطرة .. بل قد يؤثر الكثيرون السلامة والكسل فيودعوا أموالهم فى المصارف أو شهادات الادخار قانعين بما تدره عليهم من فوائد ومعرضين عن الخوض فى مجال التنمية وايجاد فرص الرزق الحلال والعمل الطيب للناس .

ان الناس تئن من ارتفاع الأسعار وضآلة الأجور بالنسبة لها مع بطء التنمية التى تفتح أبواب العمل .. كنتيجة لما نعانيه من تضخم .

وقد أشرنا كعلاج الى ضرورة الربط بين كمية النقود والانتاج وما لدينا من احتياطيات وكذلك الربط بين الأجر وكمية العمل .

ولكن أهم من كل الاجراءات النمطية المعروفة الغاء معدل الفائدة ..

ان الغاء الفوائد وتنفيذ قانون الزكاة هو العامل الجذرى لعلاج ليس مشكلة التضخم فقط بل والمسار الاقتصادى بأسره .. فكيف يتم ذلك عن طريق المصارف الاسلامية .. ؟

* * *

● **مصرف تنمية اقتصادية واجتماعية :**

لقد رأينا أن المصارف التقليدية تسهم ـ بما تمنحه من اعتمادات وما تقدمه من ائتمان فى الوقت الذى تنادى فيه الحكومة بالعمل على

امتصاص النقود الزائدة من الأسواق ... تسهم فى زيادة التضخم ومضاعفة معاناة الناس بما تخلقه من نقود .

بينما يقوم المصرف الاسلامى فى عملياته بالمشاركة مع عميله على أساس عقد المضاربة الاسلامى مثلا وهو عقد فيه شريك بالعمل أو بالعمل وبجزء من رأس المال وشريك بالمال فقط .

فأموال المصرف الاسلامى لا تمنح كقرض لا يعلم الى أين يتجه .. الى سلع استهلاكية أو متع ترفيهية أو أدوات كمالية تتراكم فى الأسواق مع اغراءات لتغيير النمط الاستهلاكى لدى القادرين بل وغير القادرين .

ان أموال المصرف الاسلامى تبحث عن الاستثمار وليس القروض وهى اذا شاركت فى عملية استيراد مثلا فهى أموال حقيقية وليست ائتمانا مخلوقا ولا اضافة لكمية النقود المتداولة .. وهى تنزل الى السوق سلعا مطلوبة فاذا بيعت استرد المصرف الاسلامى أموالا أكثر مما دفع وساهم بذلك فى الحد من التضخم وحقق فى نفس الوقت الربح لنفسه ولعميله المشارك فى العملية .

واذا أضفنا الى ذلك أن مشاركات المصرف الاسلامى تتم بدون فوائد ..

واذا كانت حسابات التكلفة لأى منتج أو سلعة مستوردة تضيف فى بنودها فائدة المصرف ـ أو رأس المال ـ وهى اليوم أكثر من عشرين بالمائة .

فاذا حذفت هذه الفائدة من التكلفة فى عمليات المصارف الاسلامية فأى رحمة تتنزل على الناس .. ؟ وأى قوة تنافسية يكتسبها المنتج الاسلامى .. ؟

ان الغاء التعامل بالفائدة فى المصارف الاسلامية حدد حقل العمل بالنسبة لها وجعلها بالتالى مصارف أعمال أو مصارف تنمية لأنه بالغاء الفائدة من معاملاتها لم يعد لديها لاستثمار أموالها وودائع عملائها الا طريق المشاركة فى عمليات التجارة الداخلية والخارجية أو فى عمليات

المقاولين أو الصناعة والزراعة .. أى أنشطة تدور على قاعدة الغنم بالغرم والكسب بالخسارة .

لكن أهم من عمليات المشاركة هو قيامها بانشاء الشركات المساهمة الصناعية والزراعية والتجارية التى تتيح فرص العمل للناس وتفتح أبواب الرزق وتنمى الثروة القومية .

ولعل العهد لم يبعد بعد بمجموعة شركات مصر التى أسسها بنك مصر فى عهد مؤسسه طلعت حرب والتى ما زالت علما على نجاح هذه السياسة الرشيدة التى انتهجها ذلك الاقتصادى الفذ فى انشاء صناعات جديدة بمصر والتى كانت تمثل حصة البنك فى أرباحها أكبر أبواب ايرادات البنك .

واذا أضفنا الى الغاء الفائدة من معاملات المصارف اصدار قانون الزكاة التى تمثل العامل الحركى فى الاقتصاد الاسلامى كله بما تحققه من توسيع قاعدة الاستهلاك وبما تحققه من دفع رؤوس الأموال الى مجالات الاستثمار حتى لا تكنز وتأكلها الصدقة التى تمثل ٢ر٥٪ سنويا من رأس المال ..

لأصبح المال الاسلامى حقا وفعلا فى خدمة المجتمع ولتحقق للعالم الاسلامى بفضل ثرواته أعلى مستويات الدخل والحياة الكريمة .. دون معاناة من مشاكل الاقتصاد الرأسمالى وأزماته .

* * *

● **صبغة المصرف الاسلامى :**

يقول المولى سبحانه وتعالى فى سورة البقرة « **صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون** » (٢٥) .

اذن لكى نكتسب صبغة الله التى أرادها للمجتمع الاسلامى بل

---

(٢٥) البقرة : ١٣٨ ، ١٣٩

والمجتمع الانسانى كله لا بد أن نخلص له سبحانه وتعالى وأن نسير فى ضوء من هديه حتى لا نضل ولا نشقى .

ويقول الدكتور أحمد النجار فى كتابه « بنوك بلا فوائد » :

« مهما قيل عن قدم البنوك الربوية فى بلادنا ورسوخ جذورها بين مؤسساتنا فى المجتمع الاسلامى فان عمرها الحقيقى لا يزيد على مائة عام هو عمر بداية دخول الاحتلال الأجنبى الى البلاد الاسلامية وسيطرته العسكرية عليها .

ان مجتمعاتنا الاسلامية ظلت ثلاثة عشر قرنا لا تعرف الفائدة فى معاملاتها ولا تتعامل بها بل تتجنبها وتحرمها .. والتوافق الزمنى بين سيطرة الاحتلال الأجنبى وقيام هذه البنوك الربوية فى مجتمعاتنا الاسلامية يؤكد القول بأن هذه البنوك انما أقيمت عن عمد وعن قصد فى المجتمعات الاسلامية لتساعد الاحتلال الأجنبى فى السيطرة على البلاد المحتلة ولتعميق التناقض فى هذه المجتمعات بين ما يعتقده الأفراد وما يمارسونه من سلوك يومى عملى ولتساعد كذلك فى طرح بذور اهتزاز المسلمين وشكهم فى المسلمات التى جاءت بها شريعتهم » .

لقد كان من أهداف الاحتلال القضاء على الجوانب الايجابية فى نفوس المسلمين فكان من ضمن أسلحته فوائد البنوك التى تستجيب لنزعة النفس الانسانية الى حب الراحة وتجنب المشقة التى يحتمها السعى فى طلب الرزق .

كما أراد الاحتلال أن يهدم ركنا من أركان الدين بوضع الأساليب التى تعوق المسلمين عن أداء الزكاة المفروضة لأن من يقبل الفائدة وهى محرمة سوف لا يؤدى الزكاة وهى بذل ... وكيف يتسنى له أن يخرج الزكاة وهى تطهير من مصدر تكتنفه الشبهة والتحريم » .

وكذلك فان سعر الفائدة الذى يتسم بالثبات الى مدى بعيد اذ أن المقرض بالفائدة لا يفرق فى سعرها بين قرض انتاجى أو استهلاكى أو قرض لمصنع حديد أو معمل أدوات تجميل .. فيكون بذلك متحيزا

لناحية دون أخرى بمعنى تشجيع المشروعات الكمالية ذات الربحية الأعلى والتى لا تتأثر كثيرا بسعر الفائدة دون نظـر الى الناحيـة الاجتماعية أو الى الحاجة الفعلية للتنمية بالمجتمع وتلك صورة من صور الجمـود التى لا تتفق مع العدالة والتى تعنى حرمـان المجتمـع من المشروعات الضرورية التى لا تدر العائد المرتفع لا سيما فى مراحلها الأولى (٢٦) كما « تعنى قبدا على التنمية المتوازنة فى المجتمع التى ينبغى أن تصطبغ أولا وقبل كل شىء بالنظرة الاجتماعية وصالح المجتمع » ..

وهذا هو ما تهدف المصارف الاسلامية الى تحقيقه فعلا للوصول الى صبغة الله التى أرادها للمجتمع البشرى .. وهى بذلك ليست تغييرا فى الشكل أو المسمى أو مجرد اضافة كلمة « اسلامى » الى اسم المصرف أو تغيير فى بعض المسميات فوق مضمون من الفكر الربوى كما ظن البعض .

ان المصارف الاسلامية هى مؤسسات مالية تمثل التحرر الحقيقى من بقايا التبعية والخضوع للاقتصاد الاستعمارى الرأسمالى الذى فـرض على بلادنا نظام المصارف الربوية وتركها من بعده تحمل فكرته وتنفذ خططه .

ان المصارف الاسلامية جاءت لتمثل تجسيدا حيا ليقظة الأمة وتثبت أن لها وجودها وصبغتها فى ميدان الاقتصاد الذى هزمت فيه يوما ما أمام الحضارة الوافـــدة .

ان المصارف الاسلامية تنطلق ابتداء من قصور مؤداه أن المال مال الله وأن البشر مستخلفون فى هذا المال لتوجيهه الى ما يرضى الله ... فى خدمة عباد الله . .

فليس الفرد حرا حرية مطلقة يفعل فى ماله ما يشاء لأن يده يد عارضة والملكية الحقة هى لله خالق كل شىء ، لذلك فالمصرف الاسلامى لا بد

---

(٢٦) أليس هذا هو ما يؤخذ على سياسة الانفتاح التى اتبعـت بمصر منذ عام ١٩٧٥ حتى قيل انه انفتاح استهلاكى .. ؟

أن يلتزم بمبادىء الشريعة التى توجه المال لخدمة المجتمع أولا وهو بهذا الالتزام يحقق دائما النجاح لأن الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ووضع لنا من الشريعة ما تصلح به الدنيا والآخرة ، والمصرف الاسلامى بذلك يكون مؤسسة مالية استثمارية تنموية اجتماعية تقوم على الالتزام بمبادىء الاسلام وتحقيق غاياته على أساس :

١ ـ السير على نظام اقتصادى اسلامى يؤمن به ٠

٢ ـ المصرف جزء من تنظيم اسلامى عام ٠

٣ ـ المصرف ملتزم بالشمولية فى السلوك الاسلامى ٠

٤ ـ المصرف ملتزم بموقف الاسلام من الربا ٠

٥ ـ فهو ليس مجرد وسيط مالى بل وظيفته الأساسية تحقيق وتعميق القيم الروحية للانسان وهو مركز اشعاع وتربية ووسيلة عملية الى حياة كريمة لأفراد الأمة ٠

* * *

● **خصائص المصرف الاسلامى :**

ان أول ما يمتاز به المصرف الاسلامى عن المصارف الأخرى وأهم معالم معاملاته هو اسقاط الفائدة من كل عملياته أخذا أو عطاء ٠٠ لأن الاسلام قد حرم الربا بل ان الله لم يعلن الحرب بلفظها فى القرآن كله الا على آكل الربا فى قوله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ٠ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** » (٢٧) ٠

والمصرف الاسلامى بذلك ينسجم مع غيره من المؤسسات الأخرى التى تشكل فى مجموعها المجتمع الاسلامى ولا يتناقض معها ولا يتسبب فى خلق تناقض فى بنية المجتمع المسلم ٠

ولعله من نافلة القول أن نردد ما ثبت علميا وعمليا من سوءات

---

(٢٧) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ٠

النظام الربوى حتى لينادى اقتصادى رأسمالى مثل « كينز » الانجليزى والاقتصادى الألمانى « جيزل » بضرورة خفض سعر الفائدة الى صفر كى تتحقق العمالة الكاملة فى رى « كينز » وتمضى عجلة التنمية بأقصى سرعتها فى رأى الآخر ٠

بل يكفى أن نذكر أن هذا النظام يمثل قمة الظلم على الأرض بما يتيحه لأحد الأطراف (المقرض) من استرداد رأسماله زائدا الفائدة مهما كانت حالة المدين ٠٠٠ خاسرا أو مأزوما أو مريضا ٠٠

انه يستحل بدون جهد عرق المدين ودمه وتتضخم ثروته على حساب الآخرين ٠ بل ان هذا النظام قد خلق طبقة تملك رؤوس أموال ضخمة لأنها تكسب دائما حتى لينذروا العالم بأنهم سيستولون على جميع أمواله ٠٠ هذه الطبقة تتحكم بقوتها الاقتصادية فى سياسات العالم وفى اشعال الحروب فى أرجائه ٠

« ان الواقع يشير الى أن كل أدوات التأثير فى المجتمع من حكومات وأحزاب وقادة فكر ووسائل اعلام ٠٠ كل ذلك أدوات فى مخالب أصحاب البنوك » (٢٨) ٠٠٠

ان نظام الربا يمثل قمة الظلم الذى يأباه الاسلام ٠٠٠ انه ظلم يمتد حتى يشمل ملايين البشر الذين يقاسون من اختلال النظام النقدى وانخفاض قيمة النقود نتيجة لارتفاع الأسعار الذى لا يتوقف والتضخم الذى يستشرى ولا يعلم الا الله متى ينتهى ٠٠٠ ؟

« أليس مما يلفت النظر أن ترتفع نسبة المدينين فى مجتمع كأمريكا الى ما يقرب المائة بالمائة ، بالرغم من ارتفاع مستوى المعيشة ٠ ؟ وما ذلك الا نتيجة تخطط لها البنوك والمؤسسات المالية وتبلغها بتأثيرها الدعائى الضخم الذى يركز على الدعوة الى الشراء بالتقسيط ويغرى به ويزين له ، فيقع فى حبائل هذه الدعايات الغالبية العظمى من المجتمع

---

(٢٨) صراع حول السلطة ، لكنيفر (مترجم) ص ٣٤ ، بنوك بلا فوائد ، للدكتور أحمد النجار ص ٤٢ ٠

ليعيشوا بعد ذلك أسارى ينهشهم التوتر ، ويفتك بهم القلق ، ويتحركون فى دائرة مفرغة من الهم الذى لا يجدون دفاعا نفسيا ازاءه غير الجـــرى المسعور بغير هوادة وراء المادة والكسب ، والتماس النسيان بالاستغراق فى المتع والشراب » (٢٩) ...

انها دوامة جهنمية محورها سعر الفائدة .. وقد أوضحنا فى ايجاز من قبل ما يترتب على التحرر منه والعمل بنظام المشاركة من خـــير للانسانية .

أما المعلم الثانى من خصائص المصرف الاسلامى فهو توجيه كـــل جهده الى الاستثمار الحلال لأن المصرف الاسلامى كما سبق أن ذكرنا هو مصرف تنمية بالدرجة الأولى والاستثمار فى المشاريع والشركـات المساهمة وتمويل التجارة الداخلية والخارجية عن طريق المشاركات هـو طريقه لتحقيق النفع للمجتمع ولمساهميه وأصحاب الودائع به .

انها صورة بعيدة كل البعد عن تصور النظام الربوى الذى يسعى لتحقيق أهدافه الخاصة فقط والتى تنحصر فى الحصول على أكبر سعر فائدة دون نظر الى اتجاه هذه الأموال ، أهى ستوظف لخدمة البشر أم لهلاكهم .. ؟

بينما نرى أن المشاركة العادلة فى المصرف الاسلامى تقوم على التعاون بين الممول وطالب التمويل فى حالتى الربح أو الخسارة كما أن أعمال هذا المصرف تخضع لقواعد الحلال والحرام التى يحددها الاسلام وتســـتهدف حاجات المجتمع ومصلحة الجماعة مما يدفعه الى تنشيط عمليات التنمية بالمجتمع لأنه ليس أمامه الا استخدام كل طاقاته لتشغيل ما لديه من أموال فى هذا السبيل وايجاد فرص العمل للناس .

وهذا يبرز خاصية المصرف الاسلامى الثالثة وهى دوره فى التنمية الاجتماعية انطلاقا من طبيعته الاسلامية التى تزاوج بين جانبى الانسان المادى والروحى ولا تنفصل فى مجتمعه الناحية الاجتماعية عن الناحية الاقتصادية والذى يضع الزكاة فريضة وركنا من أركان عقيدته الخمسة .

---

(٢٩) المرجع السابق ص ٣٠ .

فالمصرف الاسلامى يخرج الزكاة ويوجهها الى مصارفها الشرعية وأولها الفقراء والمساكين وللزكاة دورها الخطير فى التنمية الاجتماعية لأنها ليست ـ فى نظر الاسلام ـ مجرد سد جوع الفقير أو اقالة عثرته ببضعة قروش أو جنيهات ، انما وظيفتها الحقة هى تمكين الفقير من اغناء نفسه بنفسه بحيث يكون له مصدر دخل ثابت يغنيه عن طلب المساعدة من غيره .. فمن كان من أهل الاحتراف او الاتجار أعطى من الزكاة ما يمكنه من مزاولة مهنته أو تجارته بحيث يعود عليه من وراء ذلك دخل يكفيه هو وأسرته ..

والمصرف الاسلامى بانتهاج سياسته الاستثمارية يرفع من مستوى المعيشة فى المجتمع ويفتح سبل الرزق أمام أفراده فيما ينشئه من مشاريع ومؤسسات اقتصادية تابعة له مستهدفا منها الى جانب الربح الاعتبارات الاجتماعية الأخرى مثل العمالة ورفاهية المجتمع .

* * *

● **الوظائف الأساسية للمصرف الاسلامى :**

ان وجود المصرف الاسلامى فى المجتمع المسلم هو من الخطوات الهامة نحو اعادة التناسق بين ايمان الفرد وممارساته اليومية فى الحياة ... نحو استلال التناقض الذى يحسه الفرد بين عقيدته وبين ما يصطدم به فى حياته اليومية من أمور تخالفها أدت بالكثيرين منا الى متاهات من الحيرة والشك فى كنه الحقيقة ..

لقد أصبحت المعاملات المصرفية تشكل جزءا هاما وحيويا من أنشطة المجتمع التى لا غنى عنها فى حياتنا المعاصرة .. « فاذا التزم البنك بمعطيات الاسلام فانه يفتح الباب لدخول الاسلام بثروته الفكرية والعقائدية فى المجال الاقتصادى ويكون بذلك مؤسسة من أهم المؤسسات التى تردنا الى مصادر ثقافتنا الأصيلة وتحفظ لنا تلك الوحدة بين الجوانب المختلفة فى حياة الفرد المسلم » (٣٠) .

---

(٣٠) بنوك بلا فوائد ، للدكتور أحمد النجار ، ص ٤١

وتلك فى نظرى أهم وظائف المصرف الاسلامى ، أما وظائفه الأخرى فى ممارساته العملية فهو جهاز مالى تقوم أعماله على تلقى المدخرات (الموارد) واستثمارها (كاستخدامات) الاستثمار الأمثل الذى يلتزم بما أحله الله .

والادخار فضيلة يدعو اليها الاسلام فالمولى عز وجل يقول « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (٣١) .

والرسول ﷺ ينصح المسلم ان استطاع أن يترك أولاده أغنياء فذلك خير من أن يتركهم فقراء .

والادخار لدى المصرف الاسلامى الذى يضع أمواله وأموال عملائه فى خدمة المجتمع يجنب المسلم سوءات الكنز الذى حذر منه القرآن الكريم فى قوله تعالى « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم** » (٣٢) .

والمصرف الاسلامى فى هذا المجال يوفر الأوعية الادخارية التى تتفق مع متطلبات كل شخص فهناك الحساب الجارى بالاطلاع الذى يمكن السحب منه فى أى لحظة وبلا حدود ، وهناك دفتر التوفير لصغار المدخرين الذين يحرص المصرف الاسلامى على تنمية الوعى الادخارى والمصرفى لديهم ، وهناك الودائع الاستثمارية التى يلتزم صاحبها بتركها لدى المصرف فترة من الزمن ـ ثلاثة أشهر أو أكثر ـ لتشارك فى استثمارات المصرف وتأخذ نصيبها فى أرباحه .

ولأصحاب الودائع فى معظم المصارف الاسلامية الحق فى القروض الاستهلاكية بدون فوائد بل والقروض الانتاجية الصغيرة أيضا ، كما أن المصرف يقف الى جانب عميله فى الكوارث والأزمات عن طريق مصارف الزكاة وحسابها المفتوح لديه .

أما الاستخدامات فى المصرف الاسلامى وهى ما يقوم به من استثمارات

---

(٣١) الفرقان : ٦٧ (٣٢) التوبة : ٣٤

فهى تتم بعد عمل دراسات فنية عن كل مشروع تكشف للمصرف أبعاده واحتمالاته فى الربحية وهذا من باب اتقان العمل الذى يحتمه الاسلام كما فى قول الرسول ﷺ « اذا عمل أحدكم عملا أحب الله أن يتقنه » .. مما يلزم المصرف الاسلامى باقتباس أحدث وأحسن الأساليب فى عمله وعمل الدراسات الجيدة للمشروعات المعروضة عليه .. كما أن هذه الاستثمارات موزعة على أنواع مختلفة ، فمنها تمويل التجارة ومنها المساهمة فى الشركات أو تأسيس الشركات التجارية والزراعية والصناعية مع التنسيق اللازم مع الأولويات الهامة من واقع خطة الدولة القائم بها المصرف الاسلامى .

والمصرف الاسلامى بذلك يكون عاملا مساعدا للبنك المركزى فى توجيه السياسة المالية للدولة لأنه لا يوجه أمواله الى حيث لا يدرى .. فى تمويل كماليات أو محرمات بل الى سلع ضرورية .. وهو بذلك باستطاعته المعاونة فى الحد من استيراد السلع التى ترى الدولة الحد من استيرادها وذلك بايقاف تمويل عملياتها .

كما يمكنه أن يضع الأولويات المطلوبة لخدمة الخطة ليوجه اليها تمويله لأنه تمويل بطريق المشاركة وليس اعتمادات بيضاء ليس له رقابة عليها .

وهذا التنوع فى الاستثمار ـ كما سنوضح تفصيلا فى فصول الكتاب ـ الخاضع للتخطيط والدراسة يحقق الأمان للمصرف والمساهمين وأصحاب الودائع لأنى أكاد أقول انه يضمن تحقيق الأرباح دائما .

والى جانب هذه الاستثمارات توجد عمليات كثيرة تتم نظير عمولة كبيع وشراء العملات الأجنبية بيعا حاضرا وتحصيل الأوراق التجارية واصدار خطابات الضمان وغير ذلك من العمليات التى تحقق ايرادا كبيرا للمصرف .

لكن الهدف الأسمى للمصرف الاسلامى هو وضع المال فى موضعه الصحيح خادما للمجتمع وتيسير المبادلات النظيفة وتفجير الطاقات لخدمة هذا المجتمع .

واذا كنا نوهنا الى القروض بدون فوائد التى يقدمها المصرف الاسلامى فى ظروف خاصة توجبها الانسانية السامية فان عائد هذه القروض أعظم بأضعاف كثيرة من قيمة الفوائد التى يحتسبها المصرف التجارى لأن هذه القروض ستعيد الى مجال العمل والانتاج طاقات بشرية قد تثرى المجتمع وتفتح مجالات الرزق لغيرها وهذا ما وجه اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى « **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** » (٣٣) ..

* * *

● **كيف ينشأ المصرف الاسلامى ؟**

لكى ينشأ المصرف الاسلامى ـ كأى شركة مساهمة ـ لا بد من وجود مجموعة من الأفراد تؤمن بالفكرة وتتوافر لديها الرغبة الصادقة فى اظهارها ايمانا بنفعها لهم وللناس جميعا .

وقد شاهدنا أحيانا فى نشأة المصارف الاسلامية القائمة فردا مؤمنا بمضار الربا متحمسا لخدمة الناس وتحريرهم من هذا السيف المسلط على رقابهم .. قام يدعو لقيام المصرف الاسلامى بكل السبل .. بالمحاضرات وعن طريق الصحف وبالاتصالات الشخصية لتخرج فكرته الى حيز الوجود .. الى أن تنادى من اقتنعوا بها وأقاموها صرحا شامخا بعد أن اجتمعوا معا كمؤسسين ووضعوا النظام الأساسى لشركتهم فعقد التأسيس الذى وقعوه معا ورفعوه مع النظام الأساسى الى جهات الاختصاص الحكومية للحصول على ترخيص بقيام مصرفهم الاسلامى .

وعقد تأسيس المصرف الاسلامى لا يختلف عن عقد تأسيس أى مصرف آخر الا فى نقاط أربع هى :

١ ـ اسقاط الربا من معاملاته .

---

(٣٣) البقرة : ٢٤٥ .

٢ ـ حقه فى انشاء الشركات المختلفة لاستثمار أمواله وأموال أصحاب الودائع بـــه ٠

٣ ـ تحصيل الزكاة الشرعية من أمواله ـ ارباح ورأس مال ٠

٤ ـ وجود هيئة للرقابة الشرعية ضمن أجهزته ٠

وتلجأ المصارف الاسلامية الى النص فى قوانينها الأساسية على وجود هيئة الرقابة الشرعية بها ليطمئن المساهمون والمتعاملون مع المصـــرف على تنقية معاملاته من كل ما يخالف شريعة الاسلام ٠

وكذلك للاستعانة بهذه الهيئة فى صياغة عقود المصرف بما يتمشى مع أحكام شريعة الله ويبعد معاملات المصرف عن كل شبهة للربا لا سيما والمصارف الاسلامية جميعها لا تزال فى طور التجربة والخطأ لم ترسخ أقدامها بعد على الطريق ٠

وتتشكل هيئة الرقابة الشرعية من علماء الشريعة وفقهاء القانون المؤمنين بفكرة المصرف الاسلامى ٠

وفيما عدا ما ذكر تسير أعمال المصرف الاسلامى على نفس قواعد العمل بالمصارف الأخرى وله أن يفتح الفروع فى المواقع التى تحتـــاج لخدماته فى البيئة الملائمة وبعد الدراسات الميدانية مع التدرج حتى يتيح لنفسه الفرصة لتدريب الكوادر المؤمنة بالفكرة واللازمة للتوسع حتى بلوغ القرى والنجوع لتبليغ دعوته ٠

والمصرف الاسلامى ينشىء علاقات مع المصارف القائمة لحاجتـه اليها فى تيسير معاملاته لا سيما فى الخارج على أساس المعاملة بالمثل ٠

وقد أكدت الممارسة العملية ترحيب المصـارف الأوروبية والأمريكية ترحيبا حارا بالتعامل مع المصارف الاسلامية على هذا الأساس وعـــدم تقاضى فوائد أو دفع فوائد أى فى حالتى مديونية المصرف الاســـلامى أو دائنيته ٠

لكن بعض المصارف الأجنبية ترفض هذه الفكرة وفى هذه الحالة اذا اضطر المصرف الاسلامى لفتح اعتماد مستندى عليها فانه يغطى الاعتماد

مقدما أو برقيا عند دفع الاعتماد وذلك فى حدود فترة السماح المقررة دوليا وبذلك يتجنب دفع فوائد أو التعامل بالفوائد .

وما يحتم على المصرف الاسلامى حاليا التعامل مع المصارف الأخرى هو التزامه أمام عملائه بأداء كل الخدمات المصرفية اللازمة لهم من فتح اعتمادات مستندية على مختلف دول العالم والقيام بتحصيل الأوراق التاجرية لهم المسحوبة على مناطق مختلفة فى الداخل والخارج واصدار الشيكات المصرفية والتحاويل على مختلف البلاد والدول لصالح هؤلاء العملاء .

وسيستمر هذا التعامل حتى تنتشر شبكة المصارف الاسلامية بمشيئة الله وعندئذ يقبل تعامل المصارف الاسلامية مع المصارف التقليدية تدريجيا .

* * *

● كوادر المصرف الاسلامى :

ان الصبغة المتميزة للمصرف الاسلامى تفرض ضوابط معينة على العاملين به حتى يكونوا الواجهة المضيئة لهذا المصرف والصورة المشرفة للخلق الاسلامى .

« ان البنوك الاسلامية ليست مجرد بنوك لا تتعامل بالفائدة أخذا أو عطاء ولكنها مؤسسات عقيدية أنشئت لتجسيد وتدعيم الاقتصاد الاسلامى فى الممارسة العملية .. والبنوك الاسلامية من هذا المنطلق بنوك استثمارية تنموية ايجابية اجتماعية » (٣٤) .

اذن فمن الأهمية بمكان اعطاء اهتمام خاص لعقيدة الأفراد الذين يتم انتقاؤهم للعمل بالمصرف الاسلامى والتعرف على مدى ايمانهم بهدف المصرف الاسلامى ودوافعهم للعمل ورغبتهم فى هذا العمل الاسلامى وأولا وقبل كل شىء السلوك الشخصى الاسلامى لهم مع الوضوح الفكرى لوظيفة المصرف الاسلامى لديهم .

---

(٣٤) مقدمة الجزء الرابع من الموسوعة العلمية والعملية للبنوك الاسلامية الصادرة عن الاتحاد الدولى للبنوك الاسلامية ص (ك) .

والسلوك الشخصى يتمثل فى التحلى بصفات الايمان « اقامة الصلاة ، ايتاء الزكاء ، الوفاء بالعهد ، الصبر ، الصدق » وهو ما نصت عليه آية البقرة :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٣٥) ...

فأى خلل يعترى وصفا من هذه الأوصاف يخرج صاحبه عن معنى « البر » والخروج على نطاق البر يفقد الطمأنينة والثقة » (٣٦) .

وهذا يفرض على من يقوم باختيار العاملين بالمصرف الاسلامى التجرد والنزاهة ومراعاة الأسباب الموضوعية وحدها فلا يمنعه سبب شخصى من اختيار العامل الصالح .. وفى ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون » (٣٧) .**

ويقول الرسول ﷺ « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويقول عليه الصلاة والسلام عندما سأله رجل : متى تقوم الساعة ؟ فقال : « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » ، فقال الرجل : وكيف اضاعتها ؟ قال : « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » .

وفى هذين الحديثين يلفتنا الرسول ﷺ بشدة الى ضرورة اختيار الرجل الكفء الأمين لأن عدم اختيار الأكفأ للعمل يرقى فى نظر

---

(٣٥) البقرة : ١٧٧ (٣٦) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٣٧) المائدة : ٨

السلام الى درجة الخيانة ولأن الاسلام لا يهدر الكفاءة العملية أبدا والمصارف الاسلامية أحوج ما تكون الى العاملين الأكفاء ذوى الخبرات المصرفية الممتازة الى جانب السلوك الاسلامى الملتزم حتى تستطيع أن تواجه المنافسة الشرسة فى ميدان العمل المالى .. وهو ما تحاول المصارف الاسلامية تحقيقه بما تتيحه من فرص التدريب للعاملين ، وكما فرض الاسلام حسن اختيار العاملين كذلك شرع ورسم الطريق للقادة فى كل موقع فالمولى عز وجل يقول « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين** » (٣٨) .

فى هذه الآية يؤكد المولى عز وجل على صفة الرحمة التى يجب أن تظلل المجتمع وتؤلف بين قلوب أفراده وهى أهم ما يجب أن يتصف به القادة حتى يكونوا قدوة صالحة وحتى يلتف حولهم العاملون معهم ويتفانوا فى انجاز ما يوكل اليهم من عمل .

وتوجه الآية النظر الى أهمية الشورى ولا يجب أن يتعالى الرئيس على الاستماع لأى رأى من أصغر مرؤوسيه الذين يباشرون العمل بأيديهم ولهم الاحتكاك اليومى مع الجماهير .. فقد يجد لدى أحدهم الرأى السديد والفكرة الصائبة التى طال بحثه عنها .. ولذلك ننصح دائما كل رئيس عمل أن ينتهز الفرصة أو يحدد موعدا دوريا للاجتماع بمرؤوسيه لتبادل الرأى ورسم خطة العمل فى الفترة التالية .

ولا أظن أن توجيه الرحمن بحاجة الى تأييد من علماء الادارة الحديثة الذين أجمعوا على أن أنجح الأساليب القيادية فى الادارة هو ذلك الأسلوب الذى يهتم بالعلاقات الانسانية الى جانب الاهتمام بالأهداف المادية .

« بل لقد ثبت أن الاهتمام بالعلاقات الانسانية وفى مقدمتها

---

(٣٨) آل عمران : ١٥٩

المشاركة بالشورى فى التخطيط للمشروع ورسم سياسته هى الوسيلة المثلى لنجاح المشروع نفسه » .

« **فاذا عزمت فتوكل على الله** » .. اذ يجب بعد الخطوات التمهيدية الانطلاق الذى لا يعرف التراجع أو التردد .. والتوكل على الله قوة معنوية يستشعر معها المديرون والعاملون معية الله وتأييده فيما عزموا عليه وتوجه قصدهم الى انجازه .

وهكذا يجب أن يكون العمل فى المصرف الاسلامى بروح الجماعة المترابطة المتحابة .. : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » كما يقول الرسول ﷺ . وعلينا أن نسير على هديه واضعين نصب أعيننا حساب الله قبل محاسبة الناس أو البنك المركزى .. لنظفر بسعادة الدنيا والآخرة وحتى تكون كلمة الله هى العليا .

* * *